فاتت فى شهر عسلها ؛ وعلى تمثال الغواص الذى هبط إلى أعماق البحر ولم يخرج ...

مرحى أيها الدليل فى الدهاليز ... وأشر بأصبعك إلى القطع البارعة التى احرقت أعصاب أصحاب الفن قبل أن تبرز إلى الوجود ... لخص أيها الدليل أجل معانى الدنيا فى عبارتك الباهتة وقل هنا « قبور الأغنياء » ، وهنا قبور القرن الماضى ، وهنا قبور المتوسطين من الناس ... كأنى جئت هنا لأضع الموتى فى مراتبهم الاجتماعية ، ولأسأل عن وظائفهم ومقادير ثرواتهم وما حصلوا من مجد ، وما لاقوا من عنت .... قف أيها الدليل أمام أجمل فتنة فنية ؛ ثم لا تدعنى أتأملها لأنك تحسب أنك قلت لى عنها كل شىء إذ تقول إنها تكلفت أموالا كثيرة ..

ولتدخل بى أيها الدليل إلى دهليز طويل ، لأرى فى جداريه ادراجاً فأحسب أنها أدراج مكتبة وقفها بعض ذوى الثراء على الراغبين فى العلم الباحثين عن المعرفة حتى فى المقبرة ، ثم قل لى إن فى كل درج جثماناً ... وأن الادراج امتلأت بالموتى ولم يبق إلا اثنان ينتظران ميتين ...

إنها لمكتبة حافلة ! ولكن من يستطيع فك مغاليقها وفض أختامها ؟ واخرج بى أيها الدليل الى مقبرة الفقراء والمساكين الذين لا يقيمون لموتاهم نصباً ولا تماثيل . ولا تقل لى عدد الموتى ولا أعمارهم ... فانى هنا فى حديقة جميلة غناء ، بودى أن أقف فيها والشمس الهادئة تغمرنى ، والجبل الأشم يطالعنى ، والموتى الساكنون يغسلون بسذاجة قبورهم نفسى ...

ولكن قل لى أيها الدليل ما بال هذا القبر يبدو عاطلا من كل حلية . ؟ « نعم ياسيدى لأنه قبر رجل غريب ! »

أيتها الانسانية المسكينة ! تشبثى بالفروق ، وتأنقى فى الموت ، وتأنقى فى الحياة ، وأقيمى لموتى الأغنياء قبابا ، واحفرى لموتى الفقراء لحودا ، ثم انظرى آخر الأمر ماذا بقى لديك فى يديك ؟ الموتى جميعاً أصبحوا (معروضات) فى متحف ، يرتزق بالتحدث عنهم دليل جاهل ، ويتسلى بالنظر إلى صورهم زائر عابر ، ولا تبقى وراءهم إلا عبرة فى عين ، وحسرة فى قلب ، وعبرة لمن أراد أن يعتبر !

(جنوى) فتحى رضوان المحامى

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وأخذ بستور ورجاله المخلصاء يصوبون مجاهرهم على مواد يستخرجونها من أجسام موتى من الانسان والحيوان . ماتت بأمراض مختلفة الأجناس بلغت العشرات عداً ، وقضوا فى هذا ما بين عام ١٨٧٨ وعام ١٨٨٠ . كان بحثهم فى هذه الفترة به شىء من التخليط ، وتحسسهم فيها على غير هدى . ثم شاء القدر أو إرادة الله أن تضع تحت أنف بستور طريقة رائعة للتحصين من الأدواء ، ذلك التحصين الذى حلم به طويلاً . ليس فى استطاعتى أن أؤدى قصة ما جرى فى ذلك بالضبط ، لأن الذين كتبوا عن بستور اختلفت رواياتهم فيها ، ولأن بستور نفسه لم يشر فى كتاباته العلمية إلى الذى حدث ، ولم يقل قط إن الذى جرى له فى ذلك كان حظاً واتفاقاً . ومع هذا فأنا أقصها على أحسن ما أستطيع ، وأسد خللها على قدر الامكان

ففى عام ١٨٨٠ كان بستور يلهو بتلك المكروبة الصغيرة البالغة الصغر التى تصيب الدجاج فتميته بالداء المعروف بكوليرا الدجاج ، وكان الدكتور پيرُ ونسيتو Peroncito اكتشفها فوجدها ضئيلة بالغة فى الضآلة فلا تُرى المكرسكوب منها غير نقطة صغيرة ترتعد تحت أقوى المدسات ، وكان بستور أول باحث استطاع تربيتها نقية ، وذلك فى حساء صنعه لها من لحم الدجاج ، وبعد أن راقب هذه النقطة الراقصة ، وهى تتكاثر فى هذا الحساء فتبلغ الملايين الكثيرة فى الساعات القليلة ، قام فأخذ من الحساء قُطيرة فأسقطها على فُتيتة خبز ألقمها دجاجة ، فلم تمض ساعات حتى انقطعتْ وَقوقة هذا الطائر النكود ورفض الطعام وانتفش ريشه واستدار فكان ككرة من العِهن . فلما أصبح الصباح جاءه بستور فألفاه يترنح على رجلين ضعيفتين ، وعيناه فى اغتماض من نوم غامض انقلب سريعاً إلى نوم أبدىّ عميق

وقام روRoux وشمبرلاند Chamberland على هذه المكروبات الصغيرة يربيانها ويرعيانها تربية الحاضن ورعايتها . فكانا يغمسان عودا من البلاتين فى حساء يعجّ بها ، ثم يغمسانه بما حمل من البلل ويحرّ كانه فى حساء جديد خال من الأحياء ، فلا يلبث أن يعجّ هذا بالخلائف الجديدة من ذلك المكروب . وقاما على هذا يوما من بعد يوم ، ويُكثرون من القليل الذى على العود البليل العدد الهائل الكبير من هذه المكروبات ، حتى ازدحمت متناضد المعمل بزريعات متروكة قديمة بلغت أعمار بعضها أسابيع كثيرة ، وتفكر بستور فيها فقال : « غدا نُنَحّى كل هذا الركام وننظف الماضد »

وهنا جاء الحظ يهمس فى أذن بستور ، فما كان من صاحبنا أن غيّر رأيه ، فقال لرو : « نحن نعرف أن مكروب كوليرا الدجاج لا يزال حيّا فى هذه القبابة ... نعم إنه قديم ، فقد تركناه فى مكانه بضعة أسابيع ... ولكن برغم هذا أرى أن تحقن قطرات قليلة منه فى بعض الدجاج ... »

وأنفذ رو ما سأله بستور ، وإذا بالدجاجات يجيئها المرض فيذهب عنها المرح والخفة والنشاط ، وتهوم كأنها تطلب النعاس . وأصبح الصباح فأتى بستور بطلبها فى المعمل لتشريحها وفحصها موقناً أنها لا شك ماتت كالعادة ، فاذا بها تجرى على عينه هنيئة سعيدة . قال بستور : « هذا عجيب ! إن المكروب من زريعاتنا كان قبل الآن يُحقن فى العشرين دجاجة فتموت العشرون كلها ، أما هذه .... ! » على أنه لم يكن قُدّر لبستور فى هذا اليوم أن يكشف كشفه الخطير المنظور ؛ فني الغد قام هو وأسرته ورو وشمبرلاند لقضاء عطلة الصيف ، وقبل سفره أودع الدجاجات التى بَرِئت ذمة حارس المعمل ونسى أمرها

وعاد بستور من سفره . وذات يوم طلب إلى خادم المعمل أن يحمل اليه بعض الدجاج الصحيح الجديد ، وأن يجهزه للحقن ، قال الخادم : « ولكن ياسيد بستور لم يبق من دجاجنا الجديد الذى لم يحقن غيرُ زوج أو زوجين ، أما البقية فأنت تذكر أنك حقنتها قبل سفرك بمكروب من زريعات قديمة فمرضت ولكنها لم تمت » . فتسخط بستور على الخدم الذين يهملون فلا يحتفظون بوفرة من الدجاج لتكون داعماً كافية حاضرة ، ثم قال : « إذن فأحضر ما عندك من دجاج جديد ، وزوّدنا كذلك بزوج أو اثنين من الذى حقناه فأبى أن يموت ... »

وأحضرت الدجاجات وهى تملأ الجو صياحا ، فضرب أحد الأعوان محقنه فى عضلات صدورها بملايين المكروب فى صدور تلك التى كانت حقنت من قبل ، وكذلك فى صدور الجديدات ، ومضى النهار ؛ وأصبح صباح الغد ، فأقبل رو وشمبرلاند إلى المعمل ، وبينما هما يدخلان سمعا صوت بستور خافتاً يأتى من تحت السلم من بيت الدجاج وهو يصيح بهما : « رو ! شمبرلاند ! إنزلا إلىّ وأسرعا ! » وكان بستور يسبقهما داعماً إلى المعمل بساعة أو نحوها

ونزلا اليه فوجداه أمام الأقفاص يذرع الأرض بخطواته . فقال لهما : انظرا ! ان الدجاج الجديد الذى حقناه أمس مات . وكان يجب أن يموت . ثم انظرا الى هذا الدجاج القديم الذى كنا حقناه من شهر مضى ، فمرض ثم طاب ، هذا الدجاج أخذ بالأمس نفس الحقنة القاتلة التى أخذها ذلك الدجاج الجديد ، ولكنه لم يمت ... لقد قاوم فعل الحقنة أتمّ مقاومة ، انه فرح مرح . . . انه يأكل ! »

فاختبل رو وشمبرلاند ، وانبهم عليهما الأمر حيناً . فقال بستور : « ألا تدركان مغزى هذا ؟ مغزاه أنى وجدت كلّ ما أردت ! لقد وجدت الآن كيف أعطى الداء قليلا الى الحيوان — قليلا بحيث يُمرضه ولا يميته فيُشفى وشيكا .. وكل الذى علينا أن نعمله هو أن ندع هذه المكروبات الحادة القاسية تشيخ فى زجاجاتها . بدل أن نستخرج منها بالزرع أنسالا كل يوم ... ان المكروبات تَقْدُم فتشيخ فتهدأ حدتها ، وتضعف ثورتها ، فاذا أنت حقنتها فى الحيوان أعطته مرض الكوليرا ، ولكن بعضاً قليلا منه لا كلّه ، فاذا طاب استطاع بعد ذلك أن يصمد لأخبث مكروب فى العالم ... فأنتما تريان أن فرصتنا فى هذا عظيمة ؛ وأن هذا أخطر اكتشافاتى ، هذا اللقاح الذى كشفت ، وهو أكثر تأكدا من لِقاح Vaccine الجُدرىّ وأكثر منه حظاً من العلم ، فالجدرىّ لم ير أحد له جرثومة ... فهيّا بنا نطبق هذا على داء الجمرة ... وعلى كل الأدواء الخبيثة ... ونخلّص حياة الانسان والحيوان ! »

— ٣ —

لقد كان الذى وجده بستور مصادفة واتفاقا ، فلم يكن من تدبير

العقل الانسانى . ومع هذا فلو أن رجلا دون بستور قدرا وقع على الذى وقع عليه لقضى السنين الطويلة يحاول تفسير هذه الظاهرة الخفية لنفسه دون أن يأتى أمرا مذكورا ، أما بستور فما كاد يقع اتفاقا على حماية دجاجتين حقيرتين من جرثومة قتّالة حتى رأى فى هذا فرصة سانحة عظمى لحماية بنى الانسان من الموت ، فابتدع عقله الوثّاب طريقة جديدة يتختلُ بها الطبيعة التى شاءت أن يستسلم بنو الناس كلما هبت عليهم تلك بالعداء أحياؤها الصغيرة

كان بستور بلغ الثامنة والخمسين من عمره ، فلم يبق فيه من الشباب بقية . ولكن هذا اللقاح الجديد الذى اكتشفه بغير قصد فنجا به الدجاج من الكوليرا ، هذا اللقاح نفخ فى جمرة حياته فاستعرت ، فعاش من بعد ذلك ست سنوات هى أملأ سنواته بالحركة وأشدها احتداماً بالحياة ، سنوات امتلأت بحجاج شنيع ، وانخذال فظيع ، ونصر غير منظور . فى هذه السنوات الست صب بستور من الطاقة ما يصبه مائة رجل ، وأحدث فيها من الحوادث ما يحدثه هذا العدد من الرجال متظاهرين

وقام بستور وصاحباه يؤكدون أمر هذا اللقاح ، فتركوا مكروباً للكوليرا يقدُم فى حسائه وزجاجته ، فلما ضعفت شرته حقنوه فى عشرات من الدجاج الصحيح ، فمرضت سريعاً ، واشتفت سريعاً ؛ وبعد أيام قلائل حقنوها بذريعة خبيثة من المكروب نفسه تكفى لقتل العدد الوفير من الدجاج الصحيح الذى لم يحقن بعد ، وأخذ ثلاثتهم يرقبون هذا الدجاج تياهين معجبين باحتماله تلك الملايين من المكروبات وصموده الغريب لها

هكذا أغرى بستور بذكائه مكروباً بمكروب . بدأ بتأنيسه ، فلما تم له ذلك حشده وسلطه بأسلوبه الغريب على مكروب من جنسه

ولو أنه لم يكن عندئذ فعل ذلك فى غير مكروب كوليرا الدجاج ، فقد اندفع على عهده فى غطرسته وتعجرفه على الأطباء ، وفى حملته على آرائهم العتيقة ، وهزئ برطانتهم اللاتينية ، وسخر بوصفات جرّت بها أقلامهم على الورق سريعة كالبرق الخاطف ، وانعقدت الجمعية الطبية فقام يخبر الأطباء فى أدب جم أن لقاح الدجاج الذى كشفه يفوق كثيراً لقاح الجدرى الخالد الذى كشفه بينار Jenner قال لهم : « فأما الآن قد دللت على ما لم يكن بينار ليستطيع التدليل عليه ، وذلك أن المكروب الذى يقتل الحيوان هو نفسه الذى يقيه من الموت ! »

وضجر الأطباء ذوو الآراء القديمة والأزرّة الزرقاء ببستور أن نصّب نفسه إماما لبينار العظيم . وقام الدكتور جول جيران Jules Guérin يسخر من بستور أن أثار هذه الثائرة كلها من أجل تخبيص فى دجاج — واستمرت الحرب فى استعارها . وقام بستور فى غضبة ثائرة ، وأعلن على رؤوس الأشهاد رأيه فى سخافة إحدى العمليات الجراحية التى يقوم بها جيران ويُعجب ويُغرم بها . فتلا ذلك منظر من أقبح المناظر وأفضحها يسوؤنى أن أصفه وتضيق نفسى لاضطرارى لذكره . نهض جيران من مقعده ، وكان شيخاً فى الثمانين من عمره ، وأراد أن ينقض على بستور ذى الستين ، وما كاد يفعل حتى صوب إليه لكمة ، ولكن تدخل بينهما الأصحاب فمنعوا اشتباك هذين الشيخين اللذين حسبا أن الحقيقة تظهر باللكم والرفس وبكسر العظام وخمش الوجوه

وفى الغد أرسل جيران العتيق شاهديه إلى بستور يتحداه إلى المبارزة . ولكن يظهر أن بستور لم يشأ أن يخاطر بحياته وأن يموت على هذا النحو ، فأعطى صديقى جيران رسالة يحملانها إلى كاتب الأكاديمية ، وقال فيها : « لم يبق لى الواجب من سبيل أسلكها إلا أن أعرب عن استعدادى إلى تغيير كل ما نلته فيما يرى المحرّرون أنى خرجت به عن حدود النقد المباح والدفاع المعقول عن النفس » . وبذلك هرب بستور من النزال فأثبت مرة أخرى أنه انسان ولو فاته أن يكون ما نسميه فى العادة رجلا

(يتبع)

أحمد زكى

أيها المرضى بالبول السكرى

لا يجوز لكم أن تيأسوا من مرضكم أو تهملوه قبل أن تجربوا الدواء الجديد

أنتيكومان !

فهذا الدواء مرخص بناء على أحدث الأبحاث العلمية الخاصة بهذا المرض.

اطلبوا البيانات اللازمة مجانا من جلاتهوريمين . صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر